تقديم

المحافظون الجدد

تحولات الفكر، تحالفات السياسة، وعودة الإمبريالية

هبة رءوف عزت (*)

هذا الكتاب محاولة جادة للقراءة والفهم، وسعى رصين لاستكشاف خرائط فكر وحركة «المحافظون الجدد» فى الولايات المتحدة الأمريكية، ثم ربط ذلك بالسياسات الاستعمارية الجديدة للولايات المتحدة والجيب الصهيونى الاستيطانى، آخر الجيوب الاستيطانية من بقايا القرن العشرين، وهى السياسات التى تعيد الآن تشكيل واقع منطقتنا العربية حيث تدور مواجهة شاملة بين دول المشرق العربى كافة والعدو الاستعمارى على جبهات فلسطين والعراق ولبنان وسوريا، وقريبًا مصر والحجاز.

والأيديولوچية المحافظة فى الأصل هى منظومة من الأفكار نشأت فى كتابات المفكر البريطانى «إدموند بيرك» فى نهاية القرن الثامن عشر وانتشرت مع مطلع القرن التاسع عشر، وهى الأفكار التى نمت كرد فعل للتغيير الواسع الذى أحدثته الثورة الفرنسية فى أوروبا، تلك الثورة التى أثمرت العديد من التحولات بل الهزات الاجتماعية والسياسية الكبرى. وتستخدم «المحافظة» للإشارة لمجموعة من الأفكار أبرزها التركيز على التضامن الاجتماعى، ورفض تدخل الدولة فى الاقتصاد واتهام الليبرالية والفردية بهدم البنية الاجتماعية التضامنية والسياسية المتماسكة للأمة، وتركز المحافظة على دور الأسرة ودور الدين اجتماعيًا، وتنبرى

(*) مدرس مساعد علوم سياسية ـ جامعة القاهرة.

للدفاع عن التقاليد والنظام، وتؤكد أهمية التاريخ والخبرة التاريخية فى تحديد معالم التغيير واتجاهه، وتذهب لاحترام الملكية الخاصة، والدفاع عن قيمة الحرية ـ التى تأتى لدى أنصارها قبل قيمة المساواة ـ وتجنح لتقليص هيمنة الدولة.

وما لبثت أن انقسمت أفكار المحافظة إلى العديد من المذاهب والمدارس التى تبنت هذا الفكر بدرجات مختلفة، ووجدت لها صدى فى دول عديدة، كما واجهت معارضين ألصقوا بالتسمية دلالات توحى بالرجعية والجمود أو معاداة للتحديث والتطور والتغيير، وهو ما ليس صحيحًا بالمرة، إنما المحافظة رؤية محددة لمركزية التاريخ، وأهمية التدرج فى التغيير، وضرورة القيم الاجتماعية وتطورها الطبيعى، ووضع حدود لكبح جماح الفردية المتطرفة، ويصبح التطبيق والمواقف المختلفة التى يتم اتخاذها عمليًا فى الواقع من قبل المحافظين بعدها موضع تقويم ونقد، شأن أى تيار فكرى آخر.

والحق أن التمييز هنا لازم بين الرؤية المحافظة والتوجه الجمهورى، على الأقل من الناحية النظرية، فبرغم أن «الجمهوريون» يؤمنون بأهمية المشاركة والولاء والالتزام كأساس للمواطنة والجماعة السياسية، ويميلون إلى مدخل للواجبات وليس مدخل الحقوق فى رؤيتهم للمشاركة الديموقراطية، إلا أن القيم الجمهورية أو قيم الحرية المسئولة تجاه الجماعة والمواطنة الفاعلة (وليس السلبية) هى أيضًا قيم يدافع عنها طيف متنوع من الديموقراطيين باعتبارها تعالج مثالب فكرة الفردية النفعية، دون أن يتبنوا بالضرورة رؤى «المحافظون» للتاريخ والفرد والجماعة، وهو ما يوضح أهمية التفريق والتمييز بالغ الحساسية من الناحية النظرية والفكرية بين الأفكار المختلفة ودورانها داخل الأنساق الفكرية، ومسارات التقاطع ونقاط الالتقاء، ومساحات التنافر ونقاط الافتراق، فخريطة الأفكار والأيديولوچيات مركبة ومتشابكة لا يجب اختزالها بنظرة سطحية متعجلة تطلق الأحكام السهلة، كما لا يجوز النظر لها بشكل جامد ثابت إذ أنها حية وديناميكية ومتطورة، وهو ما يستلزم الاستمرار فى المتابعة والرصد بشكل مستمر، وتطوير أدوات نظرية للتحليل والفهم، وأيضًا تطوير قنوات عملية للفعل والتفعيل لواقعنا؛ لإدراك ما قد يمثله بعضها من إضافة يجب تحصيل منافعها، وما يمثله بعضها الآخر من خطر داهم ينبغى مجابهته.

ورغم أن المحافظة فى الغرب كأيديولوچية هى نسق من الأفكار المتنوعة، لكن أبرز ما تتسم به هو تعريفها بما تعارضه وليس بما تمثله، أى أن «المحافظون» ـ خاصة على المستوى السياسى ـ يحددون مواقفهم كرد فعل رافض للسياسات الليبرالية، فحين كان الفكر الليبرالى يؤمن بحرية الفرد، ركزوا على قيم الجماعة، وحين كان يؤمن بتحجيم الدولة ركزوا على النظام والتقاليد والتاريخ والمؤسسات النيابية المستقرة، لكن حيث تنامت أفكار المواطنة الاجتماعية وحقوق المواطنين فى الرعاية الصحية والتعليمية والحد الأدنى من الرفاهة الذى توفره الدولة، عارضوا هذا التوجه باعتباره يزيد من سلطة الدولة فى الاقتصاد والاجتماع، ويقيد الفرد والجماعات الاجتماعية. وهو ما دفع منافسى المحافظة لوصفها بالمرواغة والانتهازية، والرغبة فى مخالفة الليبرالية أيّا كانت سياساتها.

والحق أن المحافظة كأيديولوچية لم تجد لها صدى قويّا فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى الستينيات، فقد كان كلاً من «الجمهوريون» و«الديموقراطيون» يأنفون من تلك التسمية حتى ذلك العقد من القرن العشرين، لكن مناخ الحرب الباردة والرغبة فى تكريس القيم الأمريكية فى مواجهة المد الفكرى الشيوعى، أدى إلى بداية ظهور الأفكار المحافظة على سطح الحياة الفكرية والسياسية الأمريكية واكتساب وصف المحافظة ثقلاً متناميًا فى الخطاب السياسى فى الستينيات، وقد وصف بها بعض «الجمهوريون» من أنصار السيناتور «بارى جولد واتر»، بل وبعض الديموقراطيين من الولايات الجنوبية فى ذلك العقد من القرن العشرين.

وما يهمنا فى تحليل الفكر المحافظ هو التصورات العامة المميزة له وآثارها السياسية:

فالمحافظون حين يرفضون تدخل الدولة يتبنون رؤية تثق فى الطبيعة الإنسانية وعفويتها ومنطقها، لكنها أيضًا تقترب من الرؤية النفعية بل والداروينية من أن تطور المجتمعات يتم بشكل تلقائى لا يجب التدخل فيه بالتعديل والتغيير، والتقاليد التاريخية ـ سواء على مستوى القيم أو المؤسسات مهمة ـ بالنسبة لهم، لكن هذا أيضًا يشبه إيمان داروين بأنها كذلك؛ لأن المؤسسات والتقاليد التى استمرت تاريخيّا لا بد أنها تتمتع بقوة وصلاحية ما مكنتها من الصمود فى وجه التغيرات، ولا يجب المغامرة بإبداع مؤسسات جديدة، وهم حين يرفضون النزعة العالمية والإنسانية

العامة لليبرالية، فإنهم يكرسون فكرة الاختلاف، لكنه ليس اختلاف التنوع الخلاق بل الاختلاف الذى يكرس التمييز بين الأنا والآخر، لذلك ففكرة الجماعة الوطنية والتقاليد والتاريخ لديهم تقترن بالتمييز بين الأنا والآخر، بل والنظر لمن ينشد التغيير الراديكالى باعتباره «العدو فى الداخل» كما وصفت «مارجريت تاتشر» أحد إضرابات العمال احتجاجًا على السياسات الاقتصادية لحكومتها، وهذه الفكرة التى ترى أن الذات لا تتماسك إلا بتمييزها عن الغير، هى فكرة تضع الحرية قبل المساواة وتحتاج باستمرار للفرز والتصنيف للآخرين، وتصنيفهم دومًا كى تكتسب شرعية الأنا وتميزها عليهم، ولذلك فلا عجب أن يعارض المحافظون التعددية الثقافية ويتبنون رؤية صلبة للجماعة الوطنية التاريخية لا تتقبل بسهولة الوافدين لأرضها من قوميات أخرى، أو أصحاب الرؤى الجديدة على الساحة الثقافية، بل والممارسات الدينية التى تعتنق أديان تخالف الأديان السائدة عدديّا أو المستقرة وطنيّا وتاريخيّا.

ويمكن التمييز بين أساطين الفكر المحافظ الكلاسيكيين، والذين تعد قراءة كتبهم حول العلم والتاريخ والعقلانية متعة ذهنية أيّا كانت مساحة الاتفاق أو الاختلاف، فعلى مستوى الفكر المحافظ تبرز أسماء مثل «ليو شتراوس» فى مجال الفلسفة و«ملتون فريدمان» و«فريدريك حايك» فى مجال الاقتصاد والاجتماع، والتى ترى أن الليبرالية الفردية أهدرت قيم الحرية وكرست عبر سياسات الرفاهة الاعتمادية على الدولة وأفسدت قوة الدافعية الفردية لدى الناس، وتتدخل فى مسار التاريخ بالهندسة الاجتماعية والتخطيط والمركزية، كما أنها سعت لتطوير فكرة العدالة الفردية على يد أبرز مفكريها الليبراليين مثل «جون رولز» وتناست قيم الحرية والمساواة، وأهدرت الفردية التنافسية الإبداعية. أما على مستوى رموز كتاب المحافظين شهرة فى مجال الفكر الأمريكى المعاصر فنجد على سبيل المثال «إرفينج كريستول» صاحب الكتابات العديدة فى فلسفة «المحافظون الجدد»، لكن العمق الفلسفى يتوارى هنا فى مقابل الحسابات السياسية والمصالح النخبوية.

ورغم أن أنصار المحافظة فى الأصل يحترمون التقاليد الدينية كمصدر أخلاقى ودور الدين كمؤسسة لها دور اجتماعى، ويؤكدون على أهمية الأسرة، إلا أنهم لا يقترنون بالضرورة باليمين الدينى. لذا من المهم هنا إذًا التأكيد على أن المحافظة

والفكر الجمهورى واليمين الدينى ليست مفاهيم مترادفة فى النظرية السياسية بأية حال من الأحوال، حتى لو تقاطعت بعض أفكارها هنا أو هناك.

هذا عن النظرية والأفكار، فماذا عن اللحظة الأمريكية الراهنة ودلالاتها بالنسبة لنا تحديدًا؟

لعل أبرز ما يميز المشهد الأمريكى الآن هو ما يمكن أن نسميه هنا عن حق «**مثلث الرعب**»، وهو اجتماع الجمهوريين مع أتباع الفكر المحافظ مع أنصار اليمين الدينى المتطرف بشكل غير مسبوق تاريخيًا، وهو ما أفرز «محافظون جدد» أفكارهم لا تقاس على الفكر المحافظ كما يتم تدريسه نظريًا فى كتب الفكر والنظرية السياسية، إذ أن هؤلاء «المحافظون الجدد» الآن فى الولايات المتحدة يركزون على التاريخ والثقافة الأمريكية كفكرة إقصائية، فلا عجب أن تكرس سياساتهم للتمييز المدنى والأمنى ضد الأقليات العرقية والدين الإسلامى، ولا شأن لهذا التحيز بأحداث الحادى عشر من سبتمبر بالضرورة، من وجهة نظرنا، فهى قد أعطتهم مناسبة جيدة (سواء قدرية أم مدبرة إذا قبلنا الشكوك حول التحقيق فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر التى يحاول الديموقراطيون الآن بعد استقرار الأوضاع فتح ملفها الشائك والغامض).

والطريف أنه رغم انتماء الفكر المحافظ فى نشأته للأرضية المسيحية من الناحية الأخلاقية، فإن أبرز رموز هذا الفكر الآن فى أمريكا من اليهود (بدون أية تلميحات لرؤى مؤامرة أو أى نزعة «معادية للسامية» ـ هذه فقط ملاحظة موضوعية)، ومن المهم قراءة بيان «ما الذى نحارب من أجله؟» الذى وقعه عدد من المفكرين والمثقفين الأمريكيين لدعم الحرب ضد أفغانستان بعد ٩/١١ لنرى عددًا من أبرز أسماء اليهود الموقعين عليه.

وأيضًا من أسباب العداء الصاعد للإسلام التعريف الضيق «المحافظ» للتاريخ الأمريكى كمصدر للشرعية والهوية الأمريكية وزعم «المحافظة على التقاليد الأمريكية» (من المضحك ـ عفوًا ـ أن أمريكا أصلاً دولة بلا تاريخ ولا تقاليد)، فضلاً عن الحاجة للبحث عن عدو، فكما ذكرنا فإن «المحافظون» يبنون رؤية الذات عبر تمييزها عن الآخر، فعلوا ذلك مع نمو فكرهم فى الستينيات ضد

الشيوعية، وبعد تراجع قوة الشيوعية كأيديولوچية صار الإسلام عدواً مثاليّا . . أراضيه مستباحة، ونخبه الحاكمة طيعة للخارج، باطشة على الداخل.

سبب ثالث للعداء للإسلام هو التحالف المحافظ مع اليمين المتشدد الدينى، وخاصة أصحاب الرؤى الأصولية الإنجيلية الألفية التى تؤمن بقرب نهاية العالم وتبشر بعودة المسيح وتدعم إسرائيل كى تعجل بمجيئه، كما تقول تأويلاتها للإنجيل، فلا بأس بذبح وإبادة الفلسطينيين لو كان هذا هو الثمن، وتقطيع أوصال العالم الإسلامى إذا كان هو القوة الرئيسية (وليست الوحيدة بحال ـ فأعداء أمريكا كثير) التى تقف فى مواجهتها.

هذا المثلث المرعب يدمر الآن التجربة الليبرالية والإنسانية المهمة للولايات المتحدة ـ بما لها وما عليها ـ ويوظف الفكر الجمهورى المحترم صاحب رؤى المواطنة الإيجابية والفعالة والديموقراطية النشطة، ضد الحريات المدنية لجموع الأمريكيين فى هذه اللحظة التاريخية، ويضرب عرض الحائط بحقوق الإنسان فى مشهد جوانتنامو البربرى، ويقوم الآن ـ للطرافة ـ باجتياح البيوت وترويع المدنيين فى العراق (لطفًا ـ هل يذكرنا هذا بالسياسات الإسرائيلية من قبيل المصادفة؟)، ويستقر هذا المثلث بقوة على أرضية الرأسمالية العالمية، فهى ترى فيه حليفًا سياسيّا يحقق لها اجتياح المزيد من الأسواق وعقد المزيد من الصفقات وفتح المزيد من مجالات الاستثمار، وفى هذا المشهد تتراجع قيم حقوق الإنسان والمساواة والعدالة، وتسود معايير المصلحة والمنفعة، والعقل المحافظ الذى كان قديمًا ضد العقلانية النفعية يجيد الآن تبرير سياساته بخطاب لزج عن الحرية والحرب على الإرهاب ونشر الليبرالية بالقوة، والبنية التحتية للرأسمالية العالمية من قوى وشركات ومنظمات ومؤسسات ومصارف وأسواق نقدية، لا تبالى أى خطاب يستخدمه الساسة . . على أية حال.

المهم بالنسبة لنا أن نعى جيداً أن خطاب الضحية ليس الخطاب الأمثل، وأن فكرة المؤامرة العالمية على الإسلام ليست الرد الأنسب، فلسنا وحدنا الضحايا، بل إن الضحايا يسكنون المعمورة فى جهاتها الأربع، بما فيها أرض الولايات المتحدة نفسها، لكن الضحية الأكبر ربما ستكون هى الليبرالية الديموقراطية الجماهيرية

الحقيقية كمنظومة قيم إنسانية وعالمية، وثمرة نضالات العديد من الشعوب، بما فيها الشعب الأمريكى نفسه.

إنها مفارقات تاريخية تستحق التأمل، ولحظة تاريخية تستدعى التفكير التجديدى العميق، وتفتح نافذة لأمل فى أن يتحد الضحايا ليتحولوا إلى مناضلين، وهو ما يمكن بلا شك أن تحققه الانتفاضة الفلسطينية أو المقاومة العراقية كمشاهد كفاحية ملهمة، لكن من المهم أيضًا أن تدرك تاريخية اللحظة والفرصة القوى المدنية والديموقراطية الوطنية الحقيقية فى عالمنا العربى والإسلامى ذات التاريخ المدنى الطويل ـ خاصة فى بلد مثل مصر ـ وتبنى عليها مساحات جديدة لتشبيك جهودها وتنظيم فعلها اليومى على خريطة الواقع المحلى فى بلدان شتى، بما فيها المجتمع المدنى الحقيقى فى الغرب وأمريكا ـ والذى يشكل معنا فى خريطته البانورامية الكلية العامة ما يسمى بالمجتمع المدنى العالمى ـ لنتحالف دفاعًا عن الحرية والإنسان «ومحافظة على التقاليد» الحقيقية للإنسانية وتاريخها الممتد، تقاليد النضال ضد الظلم والاستبداد والهيمنة. وتلك مهمة ممكنة وليست مستحيلة أبرزت مسيرات لندن وواشنطن وبقية عواصم العالم فى العامين الأخيرين ـ والتى خرجت تتظاهر ضد هيمنة القطب الأوحد وضد الرأسمالية المتوحشة الباطشة ـ أننا فى حاجة للاهتمام بها وتطوير أفقها الواعد.

إن كتابًا مثل كتاب الأستاذة/ أميمة عبد اللطيف هو خطوة فى مسيرة العقل العربى المعاصر، يعكس وعى جيل جديد بقضايانا الملحة، ودأب هذا الجيل ووراثته للهم الوطنى والقومى والإنسانى، وهو رسالة لأمتنا يذكرها أنها فى حاجة متجددة للوعى بأهمية الفهم والتدبر، ثم التجريب والتطوير، ثم بعدهما القيام بأمانة الحضور والشهادة، فهذا عين التفاعل الحضارى ـ تعارفًا.. أو تدافعًا..

هذا الكتاب خطوة على هذا الدرب، والقارئ يحمل من بعده.. مسئولية المعرفة.

هبة رءوف عزت